تمكين الدين في ظل الصراع الفكري
- قراءة في مشروع مالك بن نبي -

Empowering Religion in the light of Intellectual Conflict -Reading in The project of Malek Bennabi-

م. م. شامة مقيدش
Mekideche chama

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي-كلية أصول الدين -الجزائر -

الكلمات المفتاحية:
مالك بن نبي-الاستعمار-البلاد المستعمرة-الظاهرة القرآنية-الصراع الفكري-الدين.

الملخص

يتضمن هذا البحث إلقاء الضوء على مشروع النهضة للمفكر الجزائري- مالك بن نبي- حيث يمر هذا المشروع -الذي يدعو للنهضة الحضارية وإحياء الأمة الإسلامية وبعثها في الفعل التاريخي من جديد - بعدة خطوات أولها تقييم الوضع الفكري والاجتماعي والسياسي والديني في البلاد الإسلامية كخطوة أولى نحو الإصلاح فمنهجية مالك بن نبي تعتمد على كشف الأدواء ثم وصف الدواء، وتتركز إشكالية بحثي حول» فكرة الصراع الفكري في البلاد المستعمرة» والتي كانت عنوانا لأحد مؤلفات مالك بن نبي التي كشف فيها كون الاستعمار من أكبر العوامل التي ساهمت في خلق التحديات المعاصرة التي واجهت الشريعة الإسلامية، فهذه الورقة البحثية جاءت في إطار تحديد منشأ التحديات الفكرية المعاصرة وكشف مصادرها وذلك بالاستناد على التجربة القيمة لمالك بن نبي في النضال الفكري بقلمه في سبيل الإصلاح وإعادة إحياء المشروع الحضاري، والتمكين للشريعة الإسلامية .

Abstract

This research highlights the Renaissance project of the Algerian thinker Malek Bennabi. This project, which calls for the renaissance of civilization and the revival of the Islamic nation and its rebirth in the historical act, is going through several steps, the first of which is to assess the intellectual, social, political and religious situation in the Islamic countries as a first step towards reform. Malek Bennabi methodology is based on the detection of ills and then the description of medicine. The problem of my research is centered on the «idea of intellectual conflict in the colonized countries», which was the title of one of Malek Bennabi's writings in which he revealed that colonialism is one of the biggest factors that contributed to the creation of contemporary challenges facing Islamic law. This research paper emerged in the framework of identifying the origin of contemporary intellectual challenges and revealing their sources based on the valuable experience of Malek Bennabi in the intellectual struggle with his pen for reform, the revival of the civilized project, and the empowerment of Islamic law.

Keywords: Malek Bennabi, Colonialism, Colonized country, Qur'anic phenomenon - intellectual conflict - religion

مقدمة

يشكل الحديث عن الشريعة الإسلامية جزءً من القضايا التي يهتم الفكر الإسلامي بالبحث والتأسيس فيها في الوقت المعاصر في ظل التحديات التي تترصد بتطبيقات هذه الشريعة في المجالات المختلفة وتعيق سريانها في حياة المسلم، حيث أن تناول الشريعة من هذا الباب ينقسم إلى قسمين : الأول مناقشة التحديات الناشئة عن الفرد المسلم تجاه الفكرة الدينية وخاصة بعد استفحال ظاهرة النقد الحداثي العربي للقرآن والسنة ومختلف الآثار المتصلة بهما ومحاولة الاتيان بمفاهيم جديدة منقطعة الأصل عن التراث المعرفي الإسلامي في أوقات ماضية، حيث أصبح العقل المسلم البسيط يبحث في دقائق التشريعات عن طريق الرؤية الحداثية المزيفة وهذا يشكل أحد التحديات الجديدة للشريعة الإسلامية، فالعقل المسلم البسيط لم يعد يقبل بالاتباع التقليدي دون مبررات وشروحات توافق عقليته المعاصرة ولئن كان هذا ميزة في عقل اليوم إلا أنها قد تشكل خطرا في موقف المسلم من شريعته إذا التقفته مختلف الآراء التي تنظر إلى الشريعة والأصول الإسلامية بنظرة قاصرة لم تسخر فيها سلامة العقل والنظر، أما القسم الثاني : فيتم مناقشة التحديات التي يخلقها الغزو الفكري الغربي حول مختلف مناحي تطبيقات الشريعة وأحكامها العقدية والعملية، وذلك عن طريق ظاهرة الاستشراق أو مختلف الصراعات التي يخلقها الفكر الغربي من خلال نظرته الدونية لمركبات الهوية الإسلامية، فأمام هذه التحديات الداخلية والخارجية للشريعة الإسلامية كان لا بد من أخذ موقف جاد يتم دراسة فيه هذه الإشكالية التي تصيب فعالية الأمة التي روحها مرتبطة بتمكين الشريعة الإسلامية في نفس أصحابها وفي مناحي حياتهم كلها.

إن البحث في هذه الإشكالية لن يعرف طريقه إذا تم تناوله بنظرة تجزيئية مفصولة عن الماضي والحاضر، فكان لابد من البحث في جهود المفكرين والعلماء الذين اجتهدوا في هذا الصدد للانطلاق من رؤية وقاعدة متينة تبنى عليها رؤية الراهن بناء على الاستفادة من التجارب المميزة في تاريخ الفكر الإسلامي، وخاصة تجارب المفكرين الذين حملوا لواء التصحيح الفكري تجاه المبادئ والهوية أمثال المفكر مالك بن نبي الذي ساهم في تأسيس رؤية تصحيحية يمكن الاعتماد عليها في الوقت المعاصر لإحياء تطبيق الشريعة الإسلامية على نطاق واسع، وقد كانت تجربة مالك بن نبي نموذج لمواجهة الصراع الفكري ذلك المفهوم الذي عمل على إخراجه من معامل الظلام الاستعمارية إلى رؤية وإدراك العالم الإسلامي لما فيه من خطر يجهله إنسان ما بعد الموحدين الغارق في الانحطاط والتخلف وبناء على هذا يمكن طرح الإشكالية التالية:

ما تأثير الصراع الفكري على تطبيقات الشريعة الإسلامية. وماهي الآليات التي خطها مالك بن نبي لمواجهة وتقويض الصراع الفكري في البلاد الإسلامية؟

ويندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة:

- ما مفهوم الصراع الفكري في فكر مالك بن نبي؟
- ماهي مظاهر الصراع الفكري ووجه التحدي فيه؟

ماهي جهود مالك بن نبي للتمكين للشريعة الإسلامية؟

سيتم معالجة هذه الإشكالية في ضوء المنهج الوصفي والاستقرائي خلال عملية التقصي وجمع المعلومات بالإضافة للمنهج التحليلي أثناء عملية ربط المفاهيم للوصول إلى نتائج تجيب عن الإشكالية المطروحة.

خطة البحث:

مقدمة

المبحث الأول: مدخل إلى الصراع الفكري

المطلب الأول: لمحة عن حياة مالك بن نبي

المطلب الثاني: مفهوم ومنشأ الصراع الفكري.

الفرع الأول: المفهوم

الفرع الثاني: المنشأ

المطلب الثالث: أساليب الصراع الفكري

الفرع الأول: أهمية مراجعة أساليب الصراع الفكري.

الفرع الثاني: شروط دراسة أساليب الصراع الفكري.

الفرع الثالث: الأساليب.

المطلب الرابع: مبادئ الصراع الفكري ومظاهره.

الفرع الأول: مبادئ الصراع الفكري.

الفرع الثاني: مظاهر الصراع الفكري.

المبحث الثاني: التمكين للدين في ظل الصراع الفكري.

المطلب الأول: إشكالية الاستقلال النفسي والاجتماعي في مرحلة ما بعد الاستعمار.

المطلب الثاني: مواجهة إشكالية الاستعمار النفسي والاجتماعي في الصراع الفكري.

المطلب الثالث: كتاب الظاهرة القرآنية والتأسيس المنهجي الجديد في قراءة القرآن.

المطلب الرابع: شروط وأساليب التمكين للدين.

خاتمة

❊ ❊ ❊

المبحث الأول: مدخل إلى الصراع الفكري

المطلب الأول: لمحة عن حياة مالك بن نبي وعصره:

إن حياة المفكر مالك بن نبي غنية عن التعريف وقد فضلنا أن نركز فيها على العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته العلمية والفكرية، فرغم صعوبة العصر الذي ولد فيه والصعاب التي واجهها في حياته الشخصية إلا أنه استطاع أن يعطي صورة مميزة عن الفرد المسلم المتميز في مراحله كلها ابتداء من طفولته إلى كونه شابا مسلما مليئا بالحماس.

ومؤلفنا الذي نسلط عليه الضوء هو مالك بن نبي

بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى المولود في سنة ١٩٠٥ بقسنطينة*[١] فولادته في هذه الفترة مكنته من الشهادة على القرن والتواصل بين الماضي والحاضر بتجربة شخصية مباشرة فقد كان يرى هذا المولد من قبيل الحظ الممتاز، ولد في أسرة محافظة تتكون من الأب والأم والجدة والاختين، وكان شأنها شأن أي أسرة محافظة تحافظ على الروابط بين أفرادها.[٢]، حيث كان مالك ذلك الطفل الصغير المتأثر بكل فرد من أفراد أسرته ويظهر هذا من خلال ما يوليه من أهمية كبيرة لعرض حياته الخاصة محاولا استخراج القيم الأسرية الاجتماعية منها والتي أسهمت بشكل كبير في رسم شخصيته الفكرية المستقبلية، فحديثه عن الأسرة ليس سردا روائيا خاليا من الفائدة التاريخية والمعرفية بل الأسرة هي الركيزة الأولى والأساس وخاصة جدته التي قامت معه بالدور الروحي والتربوي، بالإضافة إلى الأم التي استمد منها قيمة المرأة ودورها في رؤيته وكتابته عن المرأة [٣].

إن شخصية مالك بن الفكرية على صورتها التي وصلت إلينا كانت نتيجة لتأثير مجموعة من العوامل التكوينية المتمثلة في ما يلي: الأسرة حيث قدم من خلال الأسرة النسيج الثقافي الذي كانت تحدد وفقه هوية الأسرة الجزائرية فهي أسرة من نوع الأسر الكبيرة التي يدرك فيها الفرد تعاقب ثلاثة أجيال كاملة، فيفهم من هذا أن هناك تلاقح فكري بين أجيال الأسرة وتواصل معرفي وديمومة تاريخية أما البيئة التي ولد فيها فقد استطاع من خلالها أن يرصد النمط الديمغرافي للمنطقة وجانبا من التقاليد الاجتماعية بين الريف والمدينة فالمدينة تمثل القطيعة مع الماضي أما الريف يمثل الاستقرار والثبات والمحافظة على القديم.[٤] وهنا يمكن ملاحظة أن مالك بن نبي بالرغم من عيشه في أوروبا إلا أنه مازال متأثرا بقيم الحياة في الريف، فهو يرى أن الريف أكثر استقرارا من المدينة وأكثر محافظة منها، ويمكننا القول إن هذا الحكم على الريف والمدينة لم يعد مناسبا في الوقت الحاضر نظرا للتغييرات الحاصلة وخاصة في ظل الانفتاح على وسائل التواصل والتكنلوجيا الحديثة التي ألغت الفروق المكانية وما يتعلق بها من مفاهيم عبر الزمن.

أما عامل التعليم فيعتبر مكونا أساسيا للحياة الفكرية والروحية له فكان تعليمه ممزوجا بين تعليم مدرسي وتعليم ذاتي اعتمد فيه على القراءة لمختلف المرجعيات والمفكرين فقد استطاع أن يدرك في مرحلة ما بين ١٩٠٥ –١٩٣٠ طبيعة النخب الفكرية والسياسية التي بدأت تتكون في الجزائر، وأخذ فكرة

(١) مالك بن نبي مذكرات شاهد القرن، ص ١٥.
*قسنطينة: ولاية داخلية تقع في شرق الجزائر تحتل الترقيم ٢٥ من أصل ٥٨ ولاية حسب التحديث الجديد لسنة ٢٠٢١،
https://www.radioalgerie.dz/news/ar/article/12/202103
(٢) عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره ص٢٥..
(٣) انظر: غازي الشمري جعفر يايوش، مالك بن نبي بين التمثل والإبداع، ص ٣٨.
(٤) المرجع نفسه، ص ٤٩.

عن الأوضاع الفكرية في العالم، لقد اكتسب من خلال التعليم طريقة التفكير المنهجي السليم المعتمد على الملاحظة للظاهرة وفهم الأسباب وصولا إلى النتائج وهذا ما يفسر منهجه العلمي المتنوع في انتاجاته الفكرية. (١)

أما عن الوضع العالمي فقد عاش مالك بن نبي في فترة اتسم فيها الوضع العالمي بالفوضى وخاصة الحربين العالمية الأولى والثانية، فقد مس هذا الوضع الجزائر كباقي المجتمعات الإنسانية وخاصة البلاد المستعمرة التي اشتد تأثيره عليها، هذا الوضع جعله يدخل مجال البحث الفكري والسياسي والاجتماعي برؤية جديدة ومفاهيم تأسيسية جديدة كالقابلية للاستعمار، والدورة الحضارية، الفعالية والصراع الفكري وغيرها من الرؤى المجددة على مستوى الفكرة والرؤية والمنهج والأداة. (٢)

كما ساهمت هجرة مالك بن نبي للغرب في إعطائه فرصة للتعرف عن الثقافة عن قرب ومعرفة تفاصيلها التي لم يكن يدركها إلا بالهجرة، فقد سخر مالك بن نبي هذه التجربة في تحديد موقفه من الثقافة الغربية وفي التمسك أكثر بالهوية الإسلامية،(٣) وهذه دعوة إلى الشباب المسلم لتدارك موقفه من الثقافة الغربية وتصحيحه وعدم الانكباب على شيئيتها وفراغها من المعنى والإبقاء على الاستفادة بالأمور الإيجابية فيها بطريقة انتقائية لا اندماجية.

المطلب الثاني: مفهوم ومنشأ الصراع الفكري:

الفرع الأول: المفهوم.

إن مصطلح الصراع الفكري في فكر مالك بن نبي كان له مفهوم خاص إذ ربطه بالاستعمار ومخططاته من جهة، وربطه بالشعب المستعمر من جهة أخرى، إذ اعتبر أن الصراع الفكري يشكله عاملان عامل الاستعمار وعامل القابلية للاستعمار في البلاد المستعمرة، فمن خلال هذين العاملين يكون الصراع الفكري عبارة عن امتصاص القوى الفاعلة في البلاد وخلق حالة من الفوضى الفكرية عن طريق استراتيجيات مدروسة تطبق فيها أي طريقة ممكنة باستغلال عامل الوهن والضعف النفسي الكامن في نفسية الفرد في البلاد المستعمرة من أجل تحقيق هدف السيطرة على الشعوب من خلال الفكرة. (٤)وهذا توجه جديد في السياسة الحربية العالمية الجديدة أين أصبحت القوة لا تحقق الأغراض السياسية والطموح الاستعماري فالهدف هو خلق صراع يستمر بسلاح الأفكار لا بسلاح القوة(٥)، حيث اعتمدت هذه السياسة الاستعمارية الجديدة لكون الاستعمار العسكري من السهل إدراك خطورته ومقاومته إضافة إلى الخسائر المادية التي يتكبدها الجهد العسكري وعادة ما تبوء هذه السياسات العسكرية بالفشل،

(١) المرجع نفسه، ص ٥١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥٢.
(٤) انظر: مالك بن نبي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص ١٥.
(٥) انظر: المرجع نفسه، ص ١٨.

فكان من مصلحة المستعمر استبدال السلاح بالفكرة لأن تعليم فكرة ونشرها وتوريثها يستمر أجيالا دون مقاومة ويمكن للفكرة أن تغير أمة كاملة وأن تصل لمبادئها عكس السلاح المباشر.

ثم إن الاستعمار لا يستطيع أن يفعل شيئا إذا لم تساعده عوامل الخضوع والخنوع وهو من الناحية الأخلاقية يحتوي على الدهاء والمكر والخداع والشراسة والنهم التي هي فضائل الاستعمار الذي لا يغلبه فيها أحد، وأما السفالة والنجاسة والخيانة والعبث فهي من نصيب القابلية للاستعمار.[1]

ويرى مالك بن نبي أن مصطلح الصراع الفكري بلا معنى في البلاد المستعمرة وهذه نتيجة حتمية لواقعين:

أولا: واقع الجهل بقيمة الفكرة في مصير المجتمعات ودورها الفعال في مواجهة محاولات الاستلاب الفكري الذي يحاول الاستعمار تحقيقه.

ثانيا: الجهل بدقة الخطط الاستعمارية والوسائل والأهداف التي يسلكها ويرسمها الاستعمار من أجل التحكم في الشعوب عن طريق أفكارها.

فالبلاد المستعمرة لا تعرف عموما ما هو الصراع الفكري وتسجل تلقائيا نتائجه السلبية في حياتها وهذا الجهل يشتمل على:

- الجهل بطابع وأشكال ومقتضيات الصراع.
- الجهل بأساليب الصراع.
- الجهل بوسائل واهداف الصراع.[2]

الفرع الثاني: المنشأ.

يشكّل الاستعمار أحد أخطر مسببات الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، إذ ينشأ عند محاولة الاستعمار مواجهة الإرادة الشعبية لبلاد لها خصائصها الاجتماعية والدينية والثقافية، فعند إنزال جيش أجنبي بأرض شعب فأول ما يواجه هذا الشعب إما احتلال مؤقت لا يؤثر على حياته الخاصة إلا بصفة عابرة كمجرد حدث يخضع مؤقتا لحاجات جيش أجنبي أو يكون في حالة مواجهة عملية ضم نهائي تضعه نهائيا تحت سلطة شعب آخر حيث تسفر هذه العملية عن خلق اتجاه آخر يؤثر في حياة الشعب ومن مقتضيات هذا الضم:

-الظهور في صورة مجتمع جديدة بعد عملية التغييرات التي يجريها المستعمر إذ تغير مصير المجتمع في التاريخ بصورة مطلقة تذهب هويته الأصلية.

- تحول البناء الداخلي للمجتمع إلى خليط بين شعبين مصهورين في بوتقة أسرة جديدة حيث يكون هذا الاندماج مطبوع بخصائص احدى الشعبين.[3]

المطلب الثالث: أساليب الصراع الفكري:

الفرع الأول: أهمية مراجعة أساليب الصراع الفكري

(١) انظر: مالك بن نبي بين التيه والرشاد، ص ١٩٨.

(٢) انظر: مالك بن نبي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) انظر: مالك بن نبي في مهب المعركة، ص ٣٢.

يرى مالك بن نبي أنه من الضروري مراجعة أساليب الاستعمار في تخريب الأفكار والقيام بدراسة تقييمه لما تم تطبيقه وتجسيده على أرض الصراع الفكري فهذه المرحلة ضرورية تأتي استباقا لعملية التفكير في إنشاء وخلق أفكار فعالة مقاومة ومتنبئة لمحاولات الاستعمار في تشويهها والقضاء عليها، فإشكالية الصراع الفكري على مستوى القطر الإسلامي هي مشكلة ذات وجهين:

– الوجه الأول: التفكير في كيفية إعطاء الأفكار أقصى ما يمكن من الفعالية.

– الوجه الثاني: معرفة الوسائل التي يستخدمها الاستعمار لينقص من فاعلية الأفكار.

وبالتالي نطرح الأسئلة التالية بناء على وجهي الإشكالية:

السؤال الأول: كيف تنشأ الأفكار الفعالة في المجتمع الإسلامي.

السؤال الثاني: كيف يجب فهم أسلوب الاستعمار في الصراع الفكري حتى لا يكون له سلطان على الأفكار؟[1]

اهتم مالك بن نبي بمعاجلة السؤال الثاني محاولا إعطاء إجابات من خلال تجربته الخاصة وإبراز فائدتها لكونها تجربة أخذت ربع قرن من حياته وهو يلاحظ الواقع الذي خلقه الاستعمار مستعملا في ذلك الأساليب كلّها، فمعايشته للاستعمار بداية من مراحله الأولى في حياته إلى غاية حمله لواء الكفاح الفكري ضده جعلته يلامس حقيقة الاستعمار وخاصة فيما تعلّق بالمضايقات التي وجهت له كمكافح ضد الاستعمار داخل وخارج وطنه الجزائر، ثم إن اعتماده على التجربة الشخصية الخاصة في فهم سياسة استعمارية تطبق على البلاد المستعمرة بشكل عام مع تغير طفيف حسب خصائص البلد المستعمر، لم يكن من قبيل رواية قصة على القارئ أو من قبيل خطّ مذكرات مكافح في الجبهة الفكرية[2]، بل كان اعتماده على تجربته من باب قراءة الاستعمار قراءة منطقية تحليلية الهدف منها تسليط الضوء على أحد أهم العقبات التي تواجه الفكر الإسلامي فالهدف من هذه المراجعة:

أولا: توجيه القارئ إلى قراءة الواقع الذي يختفي وراء التجارب الشخصية بدلا من الاهتمام بسطحيات الرواية.

ثانيا: كشف دقائق الاستعمار وتجلية خططه في الصراع الفكري.[3]

الفرع الثاني: شروط دراسة أساليب الصراع الفكري

بناء على التجربة الخاصة لمالك بن نبي وتوظيفها في دراسة أساليب الصراع الفكري في معركة الأفكار فإنه يستلزم شرطين لدراستها والتمكن من دقائقها:

أولا: الاتصال المباشر للاستعمار في ميدان الصراع.

(١) انظر: مالك بن نبي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص١٩.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٠.

ثانيا: عدم الانخراط في جبهة وطنية من أجل مكافحة الاستعمار.

إنّ هذين الشرطين اقتضاهما الطابع الخاصّ الذي تتخذه معركة الأفكار في البلاد المستعمرة حيث هذه المعركة تكون معزولة الشعور في الداخل والخارج معا، فالمكافح يجد نفسه معزولا داخليا عن الرأي العام في البلد، إضافة إلى كون الكاتب التقدمي أو الذي يكافح الاستعمار في جبهة وطنية لا يكتسب التجربة نفسها التي خاضها الفدائي المنعزل، فلا يمكن لمن قاتل ضمن جبهة وطنية أن يعرف وسائل الاستعمار حيث يكون محميا من الجبهة ويحيطه الاحترام ويمنح مركزا خاصا وكل هذا يدخل في ألاعيب الاستعمار.(١)

إنّ هذا الطابع الخاص للصراع الفكري يساهم في شدّته وخاصة لما تجهل الشعوب ذاتها وتجهل أن معركة فكرية ما تدور فيها فهنا يستغلّ الاستعمار الجهل بالمعركة لعزل المكافح الحرّ عن محيطه وقضيته ليدخل المعركة دون دعم الشعب فلا قاعدة تمول وتسلح كفاحه بالدعم والوعي والمساهمة، ليواجه في نهاية أمره واقعين كلاهما أمرّ من الآخر: جهل المحيط والشعب بوجود معركة وصراع فكري، ومواجهة مراصد الاستعمار التي تعمل على إبقائه معزولا بقضيته وأفكاره.(٢)

الفرع الثالث: الأساليب

يطبّق الاستعمار مختلف الأساليب في الصراع الفكري بشكليه الداخلي والخارجي وفيما يلي عرض لهذه الأساليب

أولا في الداخل:

يطرح مالك بن نبي مجموعة من الأساليب التي يعتمدها الاستعمار في خلق الصراع الفكري في البلاد المستعمرة كما يلي:

١ –العامل النفسي:

ينهج الاستعمار في محاولة القضاء على الفكرة وفعاليتها أسلوبا يعتمد على تشغيل القواعد العامة في علم النفس(٣)، وذلك باستغلال التوجّه النفسي للشعوب المستعمرة الذي يميل إلى السهولة والأشياء المسهلة حيث إن السياسة التي ترسم خططها وفق مبدأ السهولة تجتذب إلى تيارها الشعب البسيط الذي يفتقد إل الرؤية المستقبلية وتقديره لعواقب الأشياء وذلك يكون بناء على ما يقدمه له الاستعمار من سهولة اتباع الفكرة المتجسدة التي يصنعها الاستعمار على شكل أشخاص يسهل التحكم بهم وجعلهم قدوة للشعب وذلك في مقابل قتل الفكرة المجردة التي لا يجسدها أي فرد فهي أقوى من حيث الانتقال والفعالية.(٤)

إن استغلال الاستعدادات النفسية يكون دائما مقرونا بخطط تربوية مناسبة فما يزيد من نجاح هذه الخطة أن الفرد المسلم ورث ثقافة عن عهد الانحطاط بحيث هي ثقافة يغيب عنها ما يقاوم أسباب الانحراف في نفسية الشعوب فتكون النتيجة دفع

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٢١.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٢.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٢.

الصراع الفكري عن طريق عاطفة شهوانية تفقد المسلم فاعليته وقدرته على المواجهة وإن هذه السياسة تكتمل عندما يربط عواطف الشعب بقادة يخضعون للحكم الاستعماري.[1]، ويجدر بنا الإشارة إلى أن مالك بن نبي يركز على الغالبية المشكلة لصورة العالم الإسلامي الضعيفة في قرون الاستعمار قبل الاستقلال السياسي، وليس حكما على أهل الإسلام بالإطلاق فالعالم الإسلامي لا يخلوا من الأفراد الصالحين والفاعلين اجتماعيا بشكل فعال ومنتج حافظوا بجهادهم في مختلف الميادين على الوجود الإسلامي في ظل الصراع الفكري.

٢ -الإغراء:

إن استغلال العامل النفسي يتم تحت طائل الاغراء فهو يسهل عملية الانزلاق نحو السهولات المغرية فهذا الطريق السهل يؤدي إلى السياسة التي تغذي الشهوات وتغطي الفكر عن الواقع وعن الأهداف الحقيقية بحيث ينقل الشعب من التفكير المنطقي في المشاكل الحقيقية إلى حالة التهافت والصخب دون دراية بسياسة الاستعمار التي تعمل على تخدير الرأي العام عن قضاياه وتجعله يصرف جهده واهتمامه إلى مشاهد ثانوية في مسرحية الصراع الفكري.[2]

٣ -عزل الفكرة عن العمل:

يبذل الاستعمار جهدا كبيرا في عزل الأفكار عن المجال السياسي الفعال والمؤثر، إذ يحاول تخدير الرأي العام بالترويج لقوة الرابطة بين الشعب الحاقد على الاستعمار وممثلي الأفكار المتجسدة الذين يتزعمون الحياة السياسية للشعب، فالشعب في هذه الوضعية يوكل مهمة الدفاع للجبهة الوطنية والممثلين الذين يحسن الاستعمار توجيه أفكارهم إلى مصالحه وبذلك تغيب إرادة الشعب المتمسك بالفكرة الحرة المجردة، فالمحافظة على هذه الرابطة بين الشعب وممثلي السياسة يتطلب:

-ضرب كل قوة مناهضة للاستعمار تحت أي راية تجمعت.

-منع التجمع تحت راية أكثر فعالية في مواجهته.

من خلال هذين الشرطين يتم تحديد استراتيجية الاستعمار فهي تعمل على الفصل بين الفكر والعمل السياسي حيث يصبح الفكر عقيما بلا عمل والسياسة بلا فكر عمياء.[3]

هذه الاستراتيجية تقتضي تجميد كل محاولة كفاح عند نقطة معينة تصرف نظر المكافح عن الهدف الأساسي وهو مواجهة المستعمر حيث يصبح الشعب عاجزا عن إدراك موقفه وعن الحكم عليه حكما صحيحا، ولا يتفاعل إلا مع الأمور الاستفزازية التي يحركها الاستعمار بين الفينة والأخرى فتبقى حصيلة الشعب مجرد ضربات موجهة لأهداف غير حقيقية كالمطالبة بالحقوق وهو تعبير ضمني عن قبول المستعمر، فمن هذا المنطلق محاولاته كلُّها تبقيه في نقطة واحدة لا يستطيع التحرك منها، فهذه السياسة

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٩.

العاطفية تجعل الشعب يخسر كلما بذل جهدا أكبر حيث تصور له الخسارة في الجهد والوقت على أنها فوز في معكرة الصراع الفكري ففي ظل هذه الظروف يواصل الاستعمار خلق المزيد من الفرص لتضييع فعالية الأفكار ولا يترك للشعب فرصة المراجعة والاستدراك والتفكير في موقفه ولا حتى النظر إلى مشكلاته بمنطق سليم.[1]

-ثانيا: في الخارج.

يعتمد الاستعمار أساليب خارج البلاد المستعمرة ليزيد من حدة الصراع الفكري حيث يعتمد إرسال البعثات وتوفير الهجرة والعمل بهدف إفراغ هذه البعثات من دورها وتوجيهها بشكل يخدم الصراع الفكري في الداخل لتبقى البلاد معزولة عن كل محاولة للكفاح في الداخل والخارج فنتيجة هذه البعثات دائما ما تكون عودة الأفراد بفكر يحطم الإرادة الشعبية أو تفضيل عدم العودة وهكذا يتم استنزاف الطاقات المثقفة التي كان بإمكانها أن تحدث ثورة فكرية إزاء هذا الصراع. [2]

إن أسلوب الاستعمار يظهر في صورة إنسانية بريئة وهنا تكمن خطورة الصراع الفكري فالاستعمار يجعل منه صراعا خفيّا دون شهرة يحيطه الظلام والابهام فهو صراع يصب عذابه على الجميع،[3] إن الاستعمار بصورته الفكرية الجديدة لم يكن بنفس الوضوح لدى جميع أفراد المجتمع، فما كان يدركه المفكر والمصلح من خطر الاستعمار الفكري قد يغيب عن الكثير من المجتمع مما يتطلب ضرورة التواصل الفكري بين المصلحين ومختلف المجتمع وألا يشتغل المفكرون في صوامع بعيدة عن واقع الشعب.

المطلب الرابع: مبادئ الصراع الفكري ومظاهره:

الفرع الأول: المبادئ.

يبعث مالك بن نبي برسالة إلى الشباب المسلم مفادها ضرورة اهتمامهم بالتجارب الشخصية التي فقهت أساليب الاستعمار حيث يأمل من هذه التجربة تنبيه الشباب المسلم لأخطار الطريق أثناء دخوله حلبة الصراع الفكري الذي يقرر مصير العالم الإسلامي وخاصة بعد الاستقلال السياسي الذي يجتهد الاستعمار بعده في المحافظة على الصراع الفكري داخل البلاد المستقلة بصورته النفسية و الاجتماعية، إن هذه الرسالة تنطوي على أهمية الإحاطة بالواقع الحقيقي والمعاصر للبلاد المستعمرة وذلك من أجل توجيه الجهد الاجتماعي نحو تدارك الوضع المتردي الذي خلفه الاستعمار والدفع بهذه الأمة المغلوبة إلى مسببات النهوض الحضاري أو على الأقل لمسببات الحماية من الحروب الفكرية التي تقتل فاعلية الأمة.[4]

بناء على قراءة مالك بن نبي للصراع الفكري فإن تجربته تكشف عن مبدئين للصراع:

١.مبدأ الفعالية: يهدف إلى إبطال فاعلية أفكار

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٣٤.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٣٦.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٣٧

معينة بمحاولة تحطيمها وكفها بمختلف الأساليب والوسائل حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمرة وخاصة الإسلامية.

٢. مبدأ الغموض: حيث يعمل الاستعمار على عدم كشف وجهه في المعركة عن طريق استغلال القابلية للاستعمار في نفس الشعب،[١] إذ يصبح من الصعب على الفرد إدراك وجود الاستعمار في حلبة الصراع الفكري فليس من مصلحته إدراك وجوده ورؤيته.[٢]

الفرع الثاني: مظاهر الصراع الفكري

إن مظاهر الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ذات أوجه متعددة، فبالرغم من أنها مظاهر ناتجة عن تفعيل مبدأين الغموض والفعالية إلا أنها تتعدد وجوهها كلما ظهرت فكرة تثبت فعاليتها في توجيه الطاقات الاجتماعية، فيمكن استنتاج حسب رؤية مالك بن نبي أن الفكرة الدينية هي من أكثر الأفكار فعالية في تنظيم فكر المجتمع ومن أكثرها خلقا لروح المواجهة سواء مواجهة الجهل وأسباب التقاعس الحضاري أو مواجهة الصراعات الفكرية، إن الفكرة الدينية لم تغب يوما عن تخطيط الاستعمار في الصراع الفكري فكان خلق التعارض مع هذه الفكرة يشكل أحد أهم مظاهر الصراع الفكري من زمن الاحتلال إلى يومنا هذا ثم إن مخططات الاستعمار لتحطيم هذه الفكرة -بشقيها النظري المتمثل في العقيدة والعملي المتمثل في تطبيقات الشريعة الإسلامية - في نفوس الشعوب الإسلامية استمدت آثارها إلى الحياة المعاصرة، فالتهجم اليوم واضح على الإسلام» فكلما فقد الاستعمار سيطرته على خططه و أدبه في الصراع الفكري وفقد برهانه فإنه يلجأ إلى التهجم على الإسلام وشرائعه وإدخال الدين ضمن فصول الصراع الفكري».[٣]

ويُحيلُنا مالك بن نبي إلى الفكرة المركزية في المشروع الاستعماري «فمنطق الاستعمار يفقد الأشياء معناها حتى تصير بعيدة عن الفهم»[٤] «وهذا يشكل خطرا على مستوى الفرد الذي له ضمير إسلامي[٥]، وذلك من خلال محاولة هدم الأصول الاعتقادية والتشريعية للإسلام بشتى الطرق والتقليل من دورها الاجتماعي وفعاليتها الحضارية، فتأثير هذه الفكرة يصفه مالك بن نبي في كونه أعظم التغييرات التي وقعت في مراحل التاريخ كانت بسبب ازدهار فكرة دينية.[٦] فالفكرة الدينية في رؤية مالك بن نبي هي: «المفجر الذي يحرر الطاقات الكامنة المكبلة فتجعل النفس فاعلة قادرة على تغيير مجرى التاريخ مؤثرة في المحيط الإنساني والكوني».[٧]

❋ ❋ ❋

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٤٠.
(٣) الهامش الثالث يكتب: انظر مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص٣٥.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٥) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٦) انظر: مالك بن نبي ميلاد مجتمع، ص ٨٠.
(٧) انظر:عمران بودقزدام، التجديد في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، ص٢٧٣.

المبحث الثاني: التمكين للدين في ظل الصراع الفكري:

المطلب الأول: إشكالية الاستقلال النفسي والاجتماعي في مرحلة ما بعد الاستعمار.

بيّن مالك بن نبي للشباب المسلم في العالم الإسلامي سبل الخروج من المستنقع الذوي قع فيه العالم الإسلامي، فالاستقلال السياسي لا يعني نهاية معركة الأفكار في البلاد المستعمرة، بل حتى هذا الاستقلال لا يكفي وحده لمواجهة العالم مستقبله ومصيره بعيدا عن تبعية العالم الصناعي الغربي المستغل، اذ يطرح هذا الاستقلال مشكلة الاستقلال النفسي والاجتماعي، فبناء على هذه الإشكاليات ينبغي على الشباب الذي يعيش فترة ما بعد الاستعمار أن يتوفر ويتكاثف بفعالية لحل هذه المشاكل ولأجل هذه الغاية كانت الدعوة إلى بعث القيم الإسلامية التي سادت قبل إنسان الموحدين وربط شروط النهضة بالقيم الإسلامية التي نادى باسترجاعها فنظرة مالك بن نبي للواقع هي رؤية نقدية تسبق رسم خطة فعّالة للخروج من الصراع الفكري الذي خلفه الاستعمار فلا طريق لنهضة فاعلة إلا عن تقييم الواقع ثم تقويمه بحلول علمية وعملية على أرض الواقع.[1]

إن مقتضيات مواجهة الصراع الفكري فتحَ المدارك على الخطط التي تنسج منها حياة المسلم في البلاد المستعمرة إذ وضعها المستعمر في حالة من الغموض لا يمكن إدراك بصمته فيها فيرى المسلم على إثرها أن ما يعيشه من تخلف وهن حضاري نابع من نفسه وبذلك يسهل التحكم فيمن يجهل هذا الواقع بكل ملابساته، فالاستقلال الفكري لا يمكن أن ينال إلا إذا فكر الفرد في أموره وأحواله تفكيرا صحيحا مؤسسا على أصل من التنبّه واليقظة والإدراك وبذلك يمكن اعتبار تجربة مالك بن نبي في قراءة الصراع الفكري الذي خلقه الاستعمار مشروعا تصحيحيا يخص عامل الإنسان وإعادة بنائه إذا استوفى شروط التغيير النفسية.[2]فهو يحاول فك بعض العقد والمركبات التي نشأت في نفوس المسلمين [3] في ظل الظلام الذي يسدله الصراع الفكري لإبقاء الري العام في قيود لا تراها إلا العيون المتفحصة ويبقى النشاط الاجتماعي معطلا بسبب شروط سلبية تفرضها إرادة الاستعمار الفكري الخفية.[4]

المطلب الثاني: مواجهة إشكالية الاستعمار النفسي والاجتماعي الصراع الفكري:

١ –مواجهة الأفكار المميتة:

لقد ساد المجتمع الإسلامي مجموعة من الأفكار المميتة التي فقدت بها الحياة فاعليتها وأخطر هذه الأفكار هي تلك الموروثة التي قتلت المجتمع الإسلامي حضاريا من بعد عصر ما بعد الموحدين،

(١) انظر: مالك بن نبي وفي مهب المعركة، مرجع سابق ص ٨.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ١١.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ١٤.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣.

فهذه الأفكار لا زالت تكوّن الجانب السلبي في النهضة الإسلامية والأخطر أنها لم تكن دخيلة بل هي أفكار نشأت تحت قباب جوامع العالم الإسلامي وفي ظلّ صوامعه فكل مجتمع يصنع أفكاره المميتة التي ستقتله وخطورتها تكمن في كونها تبقى منسجمة مع عاداته فهي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، فيمكن القول أن هذه الأفكار هي جانب مرضي من الثقافة الإسلامية الموروثة عن عصر الانحطاط، فالمعركة الحقيقية هي المعركة مع القابلية للاستعمار المتمثلة في العادات الرجعية والخرافات الناتجة عن بعض الدعاة. (١)

٢- مواجهة الأفكار القاتلة وتصحيح الموقف من مشكلة الثقافة الغربية:

إن الأفكار القاتلة هي تلك الأفكار التي تنطوي عليها الثقافة الغربية حيث تُسَوّقُ هذه الأفكار إلى العالم الإسلامي بشتى الطرق والأساليب عن طريق الغزو الفكري الخارجي والداخلي، وتكون هذه الأفكار موجّهة لكل طبقات وفئات المجتمع، كل يساق إليه على قدر إدراكه وفهمه، والسؤال الذي يطرحه مالك بن نبي اتجاه هذه الإشكالية: لماذا تمتص الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي هذه الثقافة القاتلة؟ فالخطر حسب رؤية ابن نبي ليس مضمون الثقافة الغربية ولكن الإشكال يكمن في الاتجاه الفكري لإنسان ما بعد الموحدين الذي يدفع بهذه النخبة إلى انتقائها الأفكار القاتلة التي هي عبارة عن افرازات وجانب الثقافة الغربية المميت فهي أفكار لا تصلح لتطور الملايين من البشر الذين بيدهم مصير الإنسانية. (٢) لا يتوقف مالك بن نبي عن طرح إشكالية دون محاولة لتحليلها وتفسيرها فجواب السؤال أن هذا الميل النخبوي إلى التقاط الأفكار الهامشية القاتلة يفسر بعدم صحة موقف الفرد المسلم من الثقافة الغربية التي هي في ذاتها مشكلة سواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية فوقف المسلم من الثقافة الغربية هو موقف شر يعود عليه بتعميق الهوة بينه وبين هويته. (٣)

٣-الدعوة إلى تفعيل أقلام المثقفين والمصلحين:

إن الكفاح بالقلم ليس مجرد أن يحشو الكاتب أفكارا في كتابه ويوجهه إلى الرأي العام، فهناك واجب على الكاتب المكافح تجاه الكلمات التي يكتبها والأفكار التي يوجهها لشعبه، فعليه أن يتأكد من واقعيتها وصلاحيتها لدخول معركة الصراع الفكري والتأثير فيه ومن مسؤوليات الكاتب أن يعرف شخصية القارئ المسلم الذي يساهم في تقرير قيمة الأفكار الاجتماعية لأن القارئ هو العامل المحول الذي يحول الفكرة فيصيرها واقعا محسوسا في سلوكه أو شيء ملموس في محيطه إضافة على مشاركة القارئ في تقويم أفكار الكاتب(٤)،وحتى يتمكن القارئ من هذه المهمة على الكاتب أن يوجه خطابه بلغة بعيدة عن التعقيد بسيطة تصل إلى رجل الشعب والابتعاد عن زخرف

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٠-١٣١.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٢.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٤.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٧.

القول متجاهلا فاعلية الفكرة وامكانها تجسيدها في الواقع فالقارئ تلميذ وأستاذ.[1]

٤ ضرورة اعتماد النقد السليم:

إن مما يرى فيه مالك بن نبي أهمية بالغة الاهتمام بمختلف المواضيع المتعلقة بالمجتمع وعدم اغفال أي موضوع وظاهرة يمكن التنبه لها فليس هناك موضوع اجتماعي غني عن الالتفات والنظر إليه فعلى الناقد الحقيقي في خدمة بلده ودينه أن يلتزم بالرؤية والملاحظة الدقيقة في محيطه ويقتضي ذلك أن يبقى حرا معزولا لا منتميا لتحزبات حتى يؤدي رسالته في تقييم وتقويم وإصلاح محيطه والكشف عن ملابسات ومسببات الظواهر وخاصة إذا أخذنا يعين الاعتبار إمكانية تدخل المستعمر في صناعة الظواهر والاشكالات التي قد تبدو بريئة في غنى عن لفت النظر إليها لأنها بالنسبة للمجتمع واقع طبيعي لا يمكن للخطر أن ينبعث منه.[2]

إن خطورة التخلي عن النقد وخاصة للسلطة الحاكمة تتمثل في الاضرار بمصلحة الوطن والنفس فالتخلي عن النقد لصالح التقليد والرضى بالواقع ينهي الحياة الأخلاقية والفكرية وينهي التقدم في الوطن فواجب النقد يتضمن:

-معنى يتصل بالجانب الأخلاقي عندما يؤدي وظيفة الشهادة للحاكم أنه أصاب إذ ترتبط فعالية النقد بشرط الإخلاص للشهادة.

-معنى يتصل بالجانب الفني في صورة الحكم على أعمال الذين لهم مقاليد الحكم في السياسة وعليه ترتبط فعالية النقد من ناحية أخرى بالكفاءة للحكم.

إن هذين الشرطين لا يغني أحدهما عن الآخر فالنقد ضروري لتقويم الاعوجاج وإصلاح الفساد ويهدي الأعمال إلى طريق الرشاد.[3] «فالنقد ليس موقف عداء يتبادل فيه خصمان الشتم والضرب بالأقلام والجمل لابل هو ذلك الموقف الذي يتبادل فيه اثنان آراءهم».[4]

٥-تحرير العقل من وثنية الجهل:

إن العقل هو مناط التكليف وهو الوعاء الذي تستقر فيه الأحكام الشرعية العقدية والعملية فلا يمكن أن تستقر روح الشريعة في نفس الأمة مادامت عقولها تغزوها وثنية الجهل المتوارث والمركب «فالجهل في حقيقته وثنية خالصة لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصّب أصناما «[5] وهو أساس الصراع الفكري الذي عطل الأمة عن الدخول في التاريخ من جديد وتدارك موقفها الحضاري وبهذا الصدد يولي مالك بن نبي اهتماما كبيرا بالدور الإصلاحي للمفكر المسلم الذي أخذ على عاتقه مسؤولية إحياء روح الأمة وإزاحة الجهل عنها، وبعث عوامل الحضارة فيها من جديد، فالكلمة هي رمز الفكر إذ تساهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية السليمة فوقعها على

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٨.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ١٤٠-١٤١.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ١٤١.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ١٤٢.
(٥) مالك بن نبي شروط النهضة، ص ٢٨.

ضمير الفرد يكون عميقا إذا استقرت معانيها في قلب الفرد وحولته إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة، فالكلمة عامل اجتماعي يسير النفس نحو التغيير وتكم قيمة الكلمة في إلقاء وراءها بذورا لأفكار كفكرة النهوض الحضاري فحيت تأتي أكلها في الضمير الإسلامي فإنها تغير التقاليد والعادات المميتة وتبعث الأمة إلى أسلوب جديد في الحياة.[١]

ومن آثار الكلمة الإصلاحية على المجتمع:

١ – بعث الحركة وتحريك النفوس وايقاظها من الركود الفكري والعملي.

٢ – كشف الغطاء عن الشعوب الإسلامية التي أقعدتها الصراعات الفكرية ومحاولات الاستعمار لجعلها شعوب تابعة لا مستقلة.[٢]

٣ – الكلمة الإصلاحية كفيلة بأن ترجع الحاسّة الاجتماعية الى البلاد المستعمرة أثناء وبعد الاستعمار ليستأنف كل شعب رسالته ويبدأ تاريخه من جديد.

٤ – الكلمة الإصلاحية الموجهة تصنع الوحدة والبطولات وتحقق تكاثف المجتمع وتصنع التاريخ لا الحوادث الفردية.[٣]

إن الكلمة والحركة الإصلاحية الناجحة التي تؤثر في الأمة هي تلك التي تؤسس مناهجها على المنهج الاكمل وهو القرآن الذي يدعي إلى تغيير النفوس لإحداث التغيير الاجتماعي[٤] مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾[٥]،إذ تتشرب الأنفس نزعة التغيير الحقيقية إذا كانت مستمدة من أصول ومبادئ الإسلام الثابتة ومستمدة من تطبيقات السلف الصالح في مقاصده ونظرته لذاته ولدوره في الحياة وذلك بأخذ الاعتبار لمقتضيات الراهن وتحدياته، فقدرة الأمة على استرجاع قوتها وقدرتها على كواجهة الصراعات الفكرية سيكون إذا تحققت الشروط نفسُها التي ولدت فيها قوة الأمة الأولى فقد كانت قوتهم صادرة عن عقيدة قوية ولسان يستمد من القرآن تأثيره مهما تغير الزمان والمكان والتحديات.[٦]

لما كانت الفكرة والكلمة الإصلاحية ذات أهمية كبيرة في الصورة الإصلاحية عند مالك بن نبي فكان لابد أن تُوجَّه توجها صحيحا يمكن تطبيقها على الواقع حتى لا تكون مجرد شعارات عاطفية فلابد من ضبط كل محاولة إصلاحية بالتفكير المنهجي والعلمي حتى لا تتحول الفكرة في ظل التفكير غير المنهجي إلى انتهازية وخاصة في الظروف الحرجة[٧] ومن مظاهر هذه الانتهازية ضياع الفكرة بين رغبات التحزب والتفرق وإعلاء مصلحة الفرد على الجماعة والتخلي عن روح الفكرة الإصلاحية لصالح التيارات الحزبية التي تحط من روح السمو وقوة الصعود والنهوض على عاطفة وجاذبية سطحية لا تخدم إلا الطرف

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٣.
(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٥) سورة الرعد، الآية ١١.
(٦) انظر: مالك بن نبي شروط النهضة، ص ٢٥.
(٧) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٦.

المتربص بالأمة في الصراع الفكري.[1]

المطلب الثالث: كتاب الظاهرة القرآنية والتأسيس المنهجي الجديد في قراءة القرآن.

إن مشروع مالك بن نبي في جزء منه يطرح مشاكل العالم الثالث وخاصة العالم الإسلامي بعد الاستقلال السياسي فيسلط الضوء عليها ويبرز طرق الكفاح من أجل القضاء على هذه المشكلات[2]،وعلى مخلفات الاستعمار الفكرية والاجتماعية والنفسية التي أصابت بعمق تدين المسلم ونظرته لنفسه ومبادئه وعقيدته والشريعة الإسلامية حيث أقعدت هذه المشاكل المسلم عن التفاعل مع وضعه الراهن بما تقتضيه مرجعيته الأسمى فلئن كان مشروع مالك بن نبي تعرية واقع العالم الإسلامي أثناء الاستعمار وما بعده في القرن العشرين فإن لرؤيته امتدادا إلى عصرنا اليوم نظرا لامتداد تلك المشاكل بدل من تقليصها والعمل بجد للقضاء عليها، فما نعيشه اليوم يمكن وصفه بأنه امتداد للصراع الفكري القديم ولكن بغطاء عصري جديد يضم داخله صراع متشعب الجذور والأبعاد والمخاطر وخاصة في ظل ما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من تشتت فوضى سياسية واجتماعية على المستوى الداخلي والخارجي معا، فإن كان هذا التغيير السياسي يبدو ظاهرة اجتماعية سليمة إلا أن حقيقته لا تنفك عن كونه من أبعاد الصراع الفكري المحتدم في راهن إنسان البلاد المستعمرة المستقلّة، فمالك بن نبي هو رجل المنهج الذي طرح في ساحة الفكر الإسلامي ما علق من أوهام ترتبط بالبنية الفكرية للإنسان المتخلف في العالم الثالث ويأخذ الذي يثري مبادرات التغيير والتطور بتجربة فتية راهنة فكان يشهد بأي نهضة استقامت على سنة التاريخ ليشهد على عقم ما اتبعت النهضة الإسلامية من سبل فتفرقت بها عن سبيل الأصالة والسنن التي أودعها الله في الحياة.[3]

ومن مساعي مالك بن نبي التطبيقية في التمكين للشريعة الإسلامية تأليفه لكتاب الظاهرة القرآنية الذي يصف فيه أن الدين في ضوء القرآن يبدو ظاهرة كونية تحكم فكر الانسان وحضارته كما تحكم جاذبية المادة وتتحكم في تطورها فالدين يبدو كأنه مطبوع في النظام الكوني قانونا خاصا في الفكر الذي يطوف في مدرات مختلفة من الإسلام، فالفكرة الدينية هي كل ما ينقل فكر الإنسان وتطلعاته واهتماماته إلى عالم القيم وسمو بالنفس إلى المستقبل[4]، ويعتبر كتاب الظاهرة القرآنية على مستوى العامل الشخصي حالة روحية وذهنية عاشها مالك بن نبي و كان حصيلة كافة المعاناة التي مر بها من البحث عن العمل إلى السفر الى ألمانيا ثم السجن، أما على مستوى العامل التاريخي الموضوعي فهذا الكتاب فهو حصيلة قراءته للفكر الإسلامي الذي يواجه ظاهرة فكرية خطيرة

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٢) انظر: مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص ٨.
(٣) انظر: مالك بن نبي بين الرشاد والتيه، مرجع سابق، ص ٨.
(٤) انظر: غازي الشمري+ جعفر يايوش، مالك بن نبي بين التمثل والإبداع، مرجع سابق، ص٩٧.

مناهضة للتراث العربي وهي ظاهرة الاستشراق التي كرس حياته من أجل مواجهتها والدفاع عن الفكر الإسلامي والعربي بإحاطة شاملة.[1] ومما يجدر الإشارة إليه حول هذا الكتاب هو أول الانتاجات الفكرية لمالك بن نبي ومما يلاحظ عن طبيعة الاتجاه الفكري لمالك بن نبي بعد هذا الكتاب أنه لم يرجع إلى هذا الكتاب بالتعليق عليه أو الكتابة في نفس موضوعاته فقد اهتم بعده بمشكلات الحضارة بعد أن اكد على أهمية الدين في كتاب الظاهرة وبقي يكتب مؤلفاته بناء على هذه الفكرة من دون الرجوع إليه ويرجع (محمد حبار) سبب عدم رجوع مالك مرة أخرى للكتاب أو التأليف على نفس منواله إلى « موقف الجمعية *حين استصغرته وعاملته بازدراء حين طبع الكتاب لأول مرة ورفضت أن تكتب له مقدمة الكتاب فقد ارتكبت الجمعية خطأ شنيعا حين رفضت نقد كتاب الظاهرة القرآنية وتعرض فيها وجهة نظرها تجاه الكتاب وقد سجل التاريخ للأستاذين محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر رحمة الله عليهما فضل كتابة المقدمة وولوج التاريخ»[2] إن مالك بن نبي لم يكن متخصصا في علوم الفقه ولا التفسير ولا أي علم من علوم القرآن بل كان مهندسا في الكهرباء وهذا ما يدعوا أكثر إلى الاهتمام بالقراءة النقدية للكتاب وتثمينها وتنقيحها وخاصة أنه مكتوب باللغة الفرنسية وترجم إلى اللغة العربية، فالكتابة بالغة الفرنسية بعمق في موضوع يخص القرآن يعتبر من الكتابات المتميزة والصعبة التي حاول مالك بن نبي المبادرة فيه لكنها بقيت مبادرة غير مكتملة لأن كتاب واحد لا يمكن أن يعالج الظاهرة القرآنية فقد ركز الكتاب على أن القرآن مستقل استقلالا تاما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو ظاهرة مستقلة بنفسها عن غيرها ولا يمكن بحال ولأي كان بما فيهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول إن لي تدخل في القرآن الكريم »[3] وهذا ما تريد الشبهات الاستشراقية حول الأصول والمصادر الإسلامية الترويج له .

موضوعات كتاب الظاهرة القرآنية:

إن الحديث عن المنهج العلمي الذي خطه مالك بن نبي في كتابه يلزمنا بالضرورة الحديث عن الموضوعات التي تناولها بالدراسة والبحث ونشير إلى أن المقام لا يسع لمباحثة الكتاب ودراسته تناول موضوعاته بالنقد والتحليل وإنما الهدف هو استخراج ملامح خدمة الشريعة الإسلامية من خلال هذا

(١) انظر: المرجع نفسه، ص٦١ -٦٤.

* جمعية علماء المسلمين الجزائرية تأسست عام ١٩٣١ على أيدي مجموعة من العلماء الجزائريين كان رئيسها الإمام عبد الحميد ابن باديس استلهمت أفكار المدرسة السلفية، كانت مهمتها إصلاحية تقوم على الوعظ والإرشاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبث الوعي في كل طبقات الشهب الجزائري انظر: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج ١ ص١٧.انظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج٥، ص ٢٧٨.

(٢) -محمد حبار، الظاهرة القرآنية ليس أعظم ما كتب مالك بن نبي، ١٥/ ٩/ ٢٠١٩، دنيا الوطن، صحيفة الكترونية، تاريخ التصفح ٢٤/ ٠٢/ ٢٠٢١ الساعة 18:51 www.alwatanvoice.com

(٣) - محمد حبار المرجع نفسه.

الكتاب الذي يصب موضوعاته كلها حول القرآن الكريم المصدر لأول للتشريع الإسلامي، ومما نراه جديرا بالاهتمام هو إعادة بناء الثقة في المصادر الأولى للإسلام القرآن و السنة الصحيحة فكلما تعززت قيمة هذه الأصول في قلب وعقل المسلم كلما زاد إقباله على الأخذ بها وبمضامينها فهذه الخطوة مهمة جدا وخاصة في ظل الهجمات الاستشراقية على الأصول الأولى ومحاولة تشويه مصداقيتها وفاعليتها كنماذج تؤطر حياة الانسان، وقد أدرك مالك بن نبي خطورة الاستشراق على الشريعة الإسلامية فجاء كتابه «الظاهرة القرآنية بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ ونشر بالفرنسية» [١] كأول تأليف له يتناول مواضيع القرآن في إطار الرد على شبهات الاستشراق التي طالت بعض مواضيع القرآن، فهذا الكتاب يثمن من ناحية كونه محاولة للتصدي للاستشراق في بعض مواضيعه وبث الإشارة فيه للمنهجية العلمية التي قد تساعد في جذب المسلم إلى أصوله وفهمها في إطار واقعه وتمكين تشريعاته في كل حياته بعيدا عن الجذب الفكري الغربي.

إذن «يشتمل كتاب الظاهرة القرآنية على فصول تندرج معها فكرة الظاهرة الدينية في أساس دراسة بن نبي من بدايتها التاريخية حيث الفكرة الدينية كانت الأساس في تطور التاريخ وهكذا انطلق بن نبي في تأكيد وجود الظاهرة الدينية في مسيرة الإنسانية ثم سار مع المنهج الديكارتي في الانطلاق من فرضية المذهب المادي وانتهى إلى تأكيد عجز المذهب عن تفسير العالم المادي، لينتهي إلى الانطلاق نحو النظرية الغيبية التي هي الأساس»[٢]

منهج بن نبي في كتاب الظاهرة القرآنية:

يمكن ترشيح كتاب الظاهرة القرآنية كنموذج لمحاولة تفعيل أحكام الشريعة الإسلامية من جديد وخاصة في الجانب العقدي وذلك نظرا للمواضيع التي ناقشها والمنهجية المعتمدة في طرح المحتوى القرآني بأسلوب علمي مقنع له القدرة على مواجهة الآلة المنهجية العلمية الغربية التي تحاول تشويه الأصول الإسلامية وما تعلق بها من فهم وانتاجات فكرية، يقول عمر مسقاوي « كان بن نبي يتطلع فعلا إلى منهج فكري جديد في تناول التراث الإسلامي فكان كتاب (الظاهرة القرآنية) بداية الطريق إلى سبيل تأمل نقدي للدراسات الإستشراقية، وأثرها في تكوين منطلقات رؤيتنا العقائدية على أسس مادية غربية تربط ظاهرة الوحي بشخص الرسول فمن هنا انطلق من نقطة ارتكاز أساسية هي القرآن الكريم، ورؤية الكون عبره في إطار من عالمية الإيمان بالعالم الغيبي خلافا لمنطلقات العصر الديكارتي»[٣] التي كانت قائمة على الشك المنهجي*[٤] .

(١) فوزية بريون، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة ص ١٢٤.

(٢) عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي ص ٣٤١.

(٣) عمر مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي ص ٣٣٦

(٤) الشك المنهجي وهو عند ديكارت شك العقل، مذهب فلسفي يزعم أن لا سبيل لإدراك إلى إدراك المطلق ولا

إذا جوهر موضوع كتاب الظاهرة القرآنية هو الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي في دراسة القرآن وهو منهج يحقق من الناحية العلمية هدفا مزدوجا:

-إتاحة الفرصة للشاب التأمل الناضج للدين.

-اقتراح اصلاح مناسب للمنهج القديم في تفسير القرآن.[1]

وسنركز على عرض كتاب الظاهرة القرآنية كنموذج عن المنهج العلمي الذي يشكل أحد أهم التحديات في الفكر الإسلامي المعاصر، فالخوض في المجال الديني يتطلب وسائل وأدوات منهجية تكون نابعة من ذاتية الأمة وملائمة لاحتياجات العصر، فإيجاد منهج علمي إسلامي يقف في وجه الأعمال الاستشراقية ويرد على تحديات العصر كان من اهتمامات مالك بن نبي باعتباره شخصية إسلامية استجابت للتحديات الزمكانية التي يواجهها عصره في شكل صراع فكري، فبناء على مرجعيته المتعددة.[2] وقد وظف مالك بن نبي في دراسة الظاهرة القرآنية المناهج التالية:

-المنهج الموضوعي: يعتبر القرآن الكريم ظاهرة تتمتع بجميع الخصائص الموضوعية فهو جدير بالملاحظة والبحث نظرا لتميز نظامه بالقابلية للتمحيص والدراسة وتميزه بموضوع رحب واسع وبطابع ملفت للنظر، فهو ظاهرة حمالة أوجه يمكن دراستها من الزاوية التقنية الاجتماعية والحضارية بأدوات جديدة- إضافة إلى كون القرآن يتسرب في القلوب الإنسانية ليشع فيها نورا ويستنهض روحها وفكرها، عن الظاهرة القرآنية مستقلة ودقيقة جذورها ضاربة في كل جوانب الحياة، لم يفقد فعاليته وحيويته بالرغم من انتقاله منذ أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض للتحريف على غير ما هو حاصل للكتب السماوية التي سبقته.[3]

-المنهج النفسي: باعتبار النبي صليى الله عليه وسلم شاهد موضوعي على القرآن الكريم فلا يمكن دراسة القرآن دون البحث في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره الشاهد الوحيد على ظاهرة الوحي واقتناعه الشخصي يمثل دليلا على صحة الظاهرة الدينية.[4]

-المنهج العلمي: يحوز القرآن في دفاته أسرار وغرائب كانت تجهلها الإنسانية من قبل، وماتزال تجهل منها الكثير لحد الآن وبالرغم من قيمته العلمية لا يمكن اعتباره كتاب علوم فلا يمكن توظيفه للنظريات والقوانين فالقرآن ليس مجلد فني ولا يعده مالك كتاب علم فالإشارة إلى المنهج الموضوعي فيه ليس من أجل إثبات المعارف واستخراجها وإنما من أجل تحقيق الإيمان وإثباته في نفوس قارئيه، فاتباع

إلى معرفة يقينية وهو الطريقة الموصلة إلى اليقين عند ديكارت « انظر إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، ص ١٠٣ وجميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص ٧٠٥و مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص ٣٦٧.

(١) انظر: مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ٥٤.

(٢) انظر: غازي الشمري مالك بن نبي بين التمثل والابداع، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ٧٥-٧٦.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٧٨.

المنهج العلمي في قراءته من أجل التسليم بعلوية الظاهرة القرآنية وقدرتها على إنشاء مجتمع حضاري.[1]

-المنهج الاجتماعي: حاول مالك بن نبي أن يستخرج من القرآن المقصد الاجتماعي التي تسعى الظاهرة الدينية لتحقيقه في الوسط الإنساني، فالوظيفة الاجتماعية للدين تتحقق في تركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر إلى النفس الإنسانية، فالطريق لمعرفة الأساس القوي للتغير الاجتماعي يكون باستقراء الوقائع التاريخية الماضية والذي يدلنا على أن الفكرة الدينية هي أساس أي حركة تغيرية اجتماعية أو حضارية.[2]

-المنهج العقلاني: وظف مالك بن نبي منهجا عقلانيا يدعو إلى إعمال النظر والتحليل المنهجي لا التفكير الغيبي الذي هو معرفة قائمة على مجرد الحدس وشغل مالك نفسه بالبحث عن المصدر الحقيقي للقرآن واثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم شخصية منفصلة عن ظاهرة القرآن وظاهرة الوحي بأسس ثابتة عقلية يدين فيها كلَّ اتباع أعمى لا يستند إلى سلطة العقل، ويرى مالك بن نبي أن ما يعيد الحياة إلى عالم الأفكار الإسلامي هو المنهج العقلي السليم القادر على تقصي الوقائع بطريقة منهجية أكثر دقة بعيدا عن الذاتية والإرث القديم.[3]

-المنهج النقلي: بالرغم من انفتاح مالك بن نبي على الثقافات الغربية والعيش في أحضانها إلا أنه بقي متمسكا بالمنهج القرآني الذي كبر في ظلاله منذ طفولته فقد شكل القرآن الكريم محور مسيرته الفكرية وحسب رؤيته الحضارية ليس هناك نهضة تتم خارج إطار الشرط القرآني فهو كان ينهل من منابع الوحي ومن السيرة النبوية والآثار الصافية للتراث الإسلامي، وهذا ما أعطى سمة المرجعية الإسلامية على كتاباته ومؤلفاته ونظرياته في الحضارة.[4]

إن كتاب الظاهرة القرآنية يحمل منهج إثبات صدق النبوة والوحي، فقد كانت منهجية هذا الكتاب دعوة إلى توحيد المنهج الفكري من أجل مواجهة الاستعمار في إطاره الثقافي الفاعل في سائر الاتجاهات، ودعوة إلى تأسيس بواعث النهوض الفكري من جديد من خلال تقوية الصلة بالتراث ومرتكزاته الكونية القرآنية، واسترجاع صورة الإنسان المسلم من جديد في منطلق دورة حضارة إنسانية جديدة.[5] ويمكن القول إن كتاب الظاهرة القرآنية هو الخطوة الأولى التي انطلق منها مالك بن نبي في عملية قراءة الواقع الإسلامي، وتشخيص مكامن الضعف فيه، وهو بمثابة دراسته الأولى التي بنى على أساسها توجهه الفكري المميز والمتناسق إذ أنه لم يغير منطلقاته الفكرية -التي أساسها القرآن والسنة الصحيحة-طيلة مسيرته الفكرية مع الرغم لمعايشته فترات ومحطات مهمة في القرن العشرين، بداية من الاستعمار الفرنسي للجزائر إلى الحرب العالمية الثانية وما تعقبها من أحداث عالمية سياسية.

(١) انظر: المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٨٤-٨٥.
(٣) انظر: غازي الشمري، مالك بن نبي بين التمثل والابداع، مرجع سابق، ص ٨٦.
(٤) انظر المرجع نفسه ص ٨٧.
(٥) انظر، عمر كامل مسقاوي، مرجع سابق، ص ٣٣٦.

المطلب الرابع: شروط التمكين للدين.

ناقش مالك بن نبي فكرة الدين كأهم العناصر في بناء الإنسان ليكون فاعلا اجتماعيا ومن ثم يكون قادرا على بناء حضاري أهل للخلود، فالمحافظة على روح الدين وحضوره له أهمية اجتماعية كبيرة إذ تتمثل في كون الحضارة لا تقوم إلا على المركب الاجتماعي الذي يكونه الفرد الصالح وليس هناك منهج قادر على إصلاح الإنسان كالإسلام بشرائعه ومقاصده، ولكن القراءة في فكر مالك بن نبي تخلص بنا إلى أن بن نبي لم يناقش قضايا الشريعة العملية بشكل مباشر فكما سبق الذكر لم يكن فقيها ولا مفسرا ولا مشتغلا بعلوم القرآن، فمشروعه كان مركزا على تقييم وضع وواقع المجتمع الإسلامي والتأسيس للبناء الحضاري الذي يشترط فيه استرجاع الإنسان المسلم المؤمن و القوي في فكره متحررا من كل الصراعات الفكرية إضافة إلى استرجاع الانسان المسلم الفعال النشط وهي صورة الانسان المسلم الأول في عصر النبوة الذي تخطى الجاهلية والوثنية والجمود الفكري بعد تشربه للإسلام وفهمه للدور الاجتماعي لهذه الشريعة الشمولية، فالدور الاجتماعي للدين هو المفهوم الذي ركز عليه مالك بن نبي وحاول من خلال إظهاره أن يعلي من قيمة هذه الشريعة بكل تنظيماتها الفردية والاجتماعية، وقد كان منهج مالك بن نبي قائم على محاولة توظيف الآيات القرآنية والهدي النبوي أثناء وضعه لشروط النهضة الحضارية والتي هي جوهر فقه التمكين الذي هو» دراسة أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس»[1] وفي تعريف آخر «فقه التمكين هو دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية، والمقومات التي بها ترجع الأمة للتمكين، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين، ودراسة طبيعة الطريق إلى التمكين وكذلك المبشرات على هذا الطريق وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم» [2] ففقه التمكين هو الأحكام الشرعية التي تختص ببناء دولة الإسلام وثبات أركانها ودخولها في الفعل الحضاري الذي يملك مسببات قيامه في ذاته القائمة على القرآن والسنة ويكون شاملا الدراسة والمعرفة للشروط والأسباب والمراحل والأهداف والمعوقات وكذلك المحافظة عليه بعد الوصول إليه [3] إذن يمكن القول أن مالك بن نبي من المشتغلين بفقه التمكين الحضاري وإحياء الأمة ورجوعها إلى الفعل التاريخي والمنافسة القائمة على كمال الوعي وتحرير العقل من أوضاره ومن تبعات الصراع والتغريب الفكري مع المنظومة الغربية التي قوامها وأساسها الدولة القومية في حين أن العالم الإسلامي قوامه الدين والشريعة الإسلامية

(١) على الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص ١٦.
(٢) محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ص ١٣.
(٣) عمر لطفي الجزار، فقه التمكين وأثره في تطبيق الأحكام الشرعية، ص٦.

الجامعة والموحدة للأمة .

يقول الله عز وجل (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[1] مما يلاحظ أن أصول فقه التمكين واضحة المعالم في القرآن الكريم وتبقى المهمة أمام المسلم جمعها وترتيبها وتحليلها وتبيين أثرها في حياة الأمة عندما حرصت على تطبيقه في كافة شؤون حياتها[2]، فلما تخلت الأمة عن كتاب ربها وسنة نبيها في التنظيم الاجتماعي خاصة حدثت الفرقة التي جعلت من الأمة محل أطماع غربية لضعف وتحلل أواصر الوحدة وهذا ما نهى عنه النبي صلى الله عليه سلم: فعن ثوبان رضي الله عنه عن أبي هريرة قال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت)[3] فالحديث الشريف ينهي عن الفرقة والتشتت وقطع كل الأسباب التي تؤدي لذلك فالعالم الإسلامية اليوم يعيش آثار التفرق الاجتماعي والسياسي والديني خاصة هذه الأخير الذي أصل للطائفية التي أصبحت تشكل أكبر عائق أمام التمكين للإسلام في ذوات أصحابه وللعالم الإسلامي.

وقد ناقش مالك بن نبي هذه الفكرة كأحد أهم أسباب ضعف الأمة وتخلفها الحضاري ويمكن استنتاج أهم شروط التمكين للدين وللأمة من خلال قراءة فكر مالك بن نبي فيما يلي:

– الانطلاق من عملية التقييم للواقع ومعرفة أسباب التراجع الحضاري فلا إمكانية لإصلاح الفساد الفكري قبل سبر أغواره وعلله.

–عاش مالك بن نبي في فرنسا وعايش الثقافة الغربية وفهم مقومات الحضارة الإسلامية فدعا إلى ضبط الموقف من الحضارة الغربية ومن الأوروبي حتى لا يكون المسلم عرضة للاستلاب والتبعية فالقصد الإلهي من اختلاف الأمم مفاده التعارف – (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهَّ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[4]، بحيث يكون هذا التعارف من قبيل الاستفادة من المشتركات الإنسانية التي لا تطال المبادئ والفكر الديني ولا تؤثر على الركائز الأساسية المكونة للهوية الإسلامية.

– دعوة مالك بن نبي إلى تفعيل العلوم الأصيلة والروحية في واقع المسلمين، وتجديدها ومنها علم الكلام الذي حاد عن تفعيل العقيدة وانحاز الى النظرة التجريدية والتنظير، فدور علم الكلام إضافة إلى الدور الدفاعي له دور في تثبيت العقيدة الإسلامية وشرحها وتبيينها، فالعقيدة في مرحلة ما

(١) سورة الحج الأية ٤١.
(٢) على الصلابي، مرجع سابق ص ٩.
(٣) الألباني، صحيح الجامع، صحيح، رقم الحديث: ٤٢٩٧، ج١، ص ١٣٥٩.
(٤) سورة الحجرات، الآية ١٣.

من تاريخ العالم الإسلامي فقدت اشعاعها الاجتماعي فأصبحت ذات جذبية فردية وصار الايمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي فليست المشكلة عند مالك بن نبي تعليم المسلم عقيدة هو يملكها وإنما المهم أن نرد هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي وفي كلمة واحدة أن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ماهي في أن نشعره بوجوده ونملا نفسه باعتباره مصدرا للطاقة وتغيير النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف وليس هذا من شأن علم الكلام بل هو من شأن مناهج التصوف، أو هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ويمكن أن نسميه علم الصلة بالله[1]، رفض مالك بن نبي علم الكلام بعد أن أصبح لا يؤدي وظيفته في تفعيل العقيدة الإسلامية على المستوى الاجتماعي، لكن وإن فقد علم الكلام هذا البعد المقاصدي فهذا لا يعني أن مالك بن نبي دعا إلى تركه بل دعا إلى البحث عن تجديد في العلوم يقوم بهذه الوظيفة وظيفة تفعيل العقيدة وتأثيرها الاجتماعي وتحريك المسلم فأهمية الوحدة الإسلامية عنده أهم من العلوم التي فقدت أحدى أهم خصائص قيامها.

-دعا مالك بن نبي إلى تتبع منهج الأنبياء في بناء المنظومة الأخلاقية و إحياء الدين في هذه النفوس فموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين لم يكونوا علماء كلام ينطقون أفكار مجردة ولكنهم في الحق كانوا مجمعين لتلك الطاقة الأخلاقية التي أوصلوها إلى نفوس فطرية، وهنا يريد مالك بن نبي الإشارة إلى الوظيفة الأخلاقية للعقيدة الإسلامية التي نقلها الأنبياء إلى النفوس دون حاجة إلى جدال وكلام مجرد مثل الذي وقع فيه علم الكلام وانحرف إلى الجدال وتبادل الآراء وهو في الوقت ذاته يشوه المشكلة الإسلامية ويفسد طبيعتها حيث غير المبدأ السلفي العملي في عقول المصلحين أنفسهم حيث ان هذه المناقضة اللاشعورية تضع في مكان المشكلة النفسية في النهضة مشكلة كلامية [2] ،حسب مالك بن نبي الجدال والكلام المجرد البعيد عن التأثير الاجتماعي والذي لا يستعرض الوظيفة الاجتماعية للدين أصبح مشكلة تعوق النهضة الإسلامية إضافة إلى المشكلة النفسية التي إصلاحها من طرف الباعثين للقوة الايمانية والمشتغلين بالمسألة العقدية والإيمانية أي علماء الكلام، فعلم الكلام عاجز عن مواجهة مشكلة الوظيفة الاجتماعية للدين فالمؤمن لا يفيد شيئا من مدرسة كلامية تعلمه مسألة وجود الله فحسب دون أن تلقنه مبادئ الرجوع للسلف، [3]يرى مالك بن نبي أن المدرسة الكلامية أمام واقع مفروض يقرر مصير تأثيرها في العالم الإسلامي ووحدته فهو يراه واقع يفرض ضرورة حضور البعد الاجتماعي ومعالجة إشكالية الانسان وشروط المجتمع المنتج للحضارة وعلى هذه المدارس أن لا تتجاهل مبادئ السلف العملية وتلقينها للمصلح أو الفرد المسلم إذ

(١) انظر: مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي، ص ٤٥

(٢) انظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥.

يقول الله تعالى ناهيا عن التفرق (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) [1]

–من شروط التمكين للدين دعا مالك بن نبي المؤسسات الدينية الإصلاحية والجامعات الإسلامية التي تعنى بالعلوم الشرعية إلى الابتعاد عن التسامي الذي يخدم فكرة المديح والتنظير بعيدا عن العمل وخاصة في ميدان العقيدة، فواجب هذه المؤسسات ليس الاهتمام بالفكر الغربي والاشادة بمدح العقيدة الإسلامية بعيدا عن الفعل الواقعي والتطبيق العملي لهذا الدين فهذا يعتبر من نقائص الحركات الإصلاحية التي تفرد جهدا كان لابد ان يستغل داخل هذه المؤسسات وتقويتها واصلاح مناهج وطرق التدريس فيها فجمود هذه المؤسسات يتحدى أحيانا إرادة الإنسان [2].

– الدعوة إلى ضرورة «تسييد الفقه الخالص على الواقع السائد وهذا يقتضي الرجوع الإسلام الخالص أي بمعنى تنقية النصوص القرآنية من الغواشي الكلامي والفقهية والفلسفية[3]التي حرفت القصد الرباني ومقاصد الشريعة وهذه دعوة من مالك بن نبي إلى المشتغلين بهذه العلوم كل حسب تخصصه فلم يضع مالك بن نبي آلية تنقية هذه النصوص فهو حاول تقييم الوضع العام الذي خلص إليه تفاعل العقل مع القرآن ومن ثم أسدى بالنصح للمشتغلين بهذه العلوم .

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٦.
(٣) –انظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٢.

❊ ❊ ❊

خاتمة

بناء على ما سبق تناوله توصلنا إلى النتائج والتوصيات والتي هي مكملة للبحث:

١ –إن تناول مالك بن نبي قضايا الشريعة الإسلامية ونصرتها لم يكن بشكل مباشر بل كان فكره منصبا نحو إعداد الإنسان انطلاقا من التركيز على ضرورة الدين ودوره في بناء المجتمعات المؤهلة لصناعة الحضارة وإحيائها بعد تراجعها إذ يعتبر الدين الإسلامي مرجعية تحمل في ذاتها دوافع التجديد والنهوض.

٢. يُعتبر مالك بن نبي شاهدا على عصر الاستعمار، فقد عاصر الرجل الحربين العالميتين، كما شاهد بأم عينيه استعمار أغلب البلاد الإسلامية، مما شكّل لدى الرجل حسّا معرفيا وهما حضاريا بضرورة مواجهة الاستعمار وصياغة مشروع فكري يُسهم في يقظة العقل المسلم وخاصة فيما تعلق بأساليب الاستعمار ومظاهره التي قد تخفى على الشعوب المستعمرة والتي يستغل فيها المستعمر مختلف الأساليب السياسية والنفسية في السيطرة والإخضاع.

٣. الوجود الاستعماري في البلاد المسلمة في مقدمة الأسباب التي أدت إلى خلق الصراع الفكري بمختلف تحدياته التي طالت إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية فقد هيأ الاستعمار جوا فكريا تفقد فيه الفكرة الدينية حضورها في نفس المسلم، وتعتبر فكرة القابلية للاستعمار من أحد أهم المفاهيم التي صاغها مالك بن نبي والتي ساهمت كثيرا في تمكين المستعمر

فكريا وسياسيا من البلاد المستعمرة.

٤.إن مالك بن نبي من التجارب الفكرية المميزة التي أخذت على عاتقها مواجهة التحديات الفكرية ونصرة الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها وتمكينها من خلال إحياء قيمة الظاهرة القرآنية في نفوس المسلمين من خلال آثاره المتنوعة التي من بينها كتابه الظاهرة القرآنية، إذ يمكن أخذ محاولته كنموذج يمكن توظيفه في المناهج التربوية والإصلاحية، ويعتبر الكتاب محاولة أولية لم يؤلف مثلها بعد ذلك ولم يفصل في مواضيعها إذ ما يميز الكتاب أنه إشارات عامة في مواضيع قرآنية مختلفة، ومن هذا المنبر نوصي بتناول الكتاب ودراسته دراسة موضوعية نقدية يتم من خلالها توسيع المواضيع التي تناولها بشكل مجمل وربطها مع مختلف أفكاره في الكتب الأخرى.

٥.ينتمي مالك بن نبي إلى اتجاه التصحيح الفكري الذي يمثله ثلة من المفكرين أمثال إسماعيل راجي الفاروقي بلقاسم حاج أحمد حيث يرون أن إشكالية التخلف تكمن في الأفكار المغلوطة التي رسمها الآخر عنا عن طريق الغزو الفكري فوجب مواجهته بتصحيح الرؤى المغلوطة وإعادة بناء وعي الفرد المسلم، ومحاولة تقديم الفكر الإسلامي بصورة جديدة يرسم فيها المسلم ذاته في عالم الاقتصاد والسياسة والاجتماع، ويتم إعادة تصحيح الصورة النمطية السيئة التي روجوها الآخر عن العقل المسلم وعجزه عن الإبداع مما يجعل مشروع مالك بن نبي محاولة لاستعادة الإنسان المستلب فكريا.

٦- المشروع الحضاري لمالك بن نبي يقوم على خطوتين أساسيتين، الخطوة الأولى تاريخية تهدف إلى مراجعة وتقييم واقع العالم الإسلامي في مختلف الميادين، وتشخيص الإشكالات ومعرفة مصادرها، الخطوة الموالية خطوة اسشترافية تهدف إلى محاولة وضع الحلول انطلاقا من الذات الإسلامية القائمة على روح الشريعة الإسلامية، فمشروعه قائم على جوهرية الدين والتمكين له من خلال توظيفه في مختلف المجالات ابتداء من صناعة الإنسان المتدين، وإن كان مشروع مالك بن نبي مهم في تنظيراته وفلسفته القائمة على العمل إلا أنه لم يكتب له تطبيقا في العالم الإسلامي وفكره لم يخرج من دائرة التنظيرات الأكاديمية مما يدعو دعوة جادة لدراسة فكره دراسة نقدية تتوافق مع متطلبات الواقع وأخذ منه ما يتلاءم مع مستجدات العصر وتوظيفها في المجالات التي دعا إلى إصلاحها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وهذه الخطوة تحتاج لدعم من الفاعلين الاجتماعين والحكومات.

❊ ❊ ❊

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

كتب الحديث.

١-الألباني، صحيح الجامع، ط٣،ج١، بيروت، المكتب الإسلامي،١٩٨٨.

الكتب:

١ – مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ط١٦، دمشق، دار الفكر، ٢٠١٨م.

٢–مالك بن نبي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط١٠، دمشق، دار الفكر، ٢٠١١م.

٣–مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ت عبد الصبور شاهين، ط ٣، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦م.

٤–مالك بن نبي، شروط النهضة، ت: عبد الصبور شاهين، ط٤، دمشق، دار الفكر،١٩٨٨م.

٥–مالك بن نبي في مهب المعركة، ط١، دمشق، دار الفكر، ١٩٩١م.

٦–مالك بن نبي بين الرشاد والتيه، ط٨، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٨م.

٧–عمران بودقزدام، التجديد في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير منشورة، قسنطينة، دار الهدى، ٢٠١٥م.

٨–غازي الشمري، جعفر يايوش، مالك بن نبي بين التمثل والإبداع، ط١، دمشق، دار نينوى، ٢٠١٧م.

٩–مالك بن نبي بين الرشاد والتيه، ط٨، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٨م.

١٠–مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ط٥، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦.

١١–عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته، ط١، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث ٢٠١٢م

١٢–جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دط، بيروت، دار الكتب اللبناني، ج ١، ١٩٨٢.

١٣–مراد وهبة، المعجم الفسلفي، دط، القاهرة، دار قباء الحديثة، ج٢، ٢٠٠٧.

١٤–إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، دط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٩.

١٥–عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي، ط١، دمشق، دار الفكر، ج١، ٢٠١٣.

١٦–أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج ٣، ١٩٨٢.

١٧–أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧.

١٨–فوزية بريون، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ط ١ دمشق، دار الفكر، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة منشجن أمريكا، ٢٠١٠

١٩–على الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ط٥، لبنان، دار المعرفة، .٢٠٠٩

٢٠–محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ط٣، تونس، دار السلام، ٢٠٠٣.

٢١–عمر لطفي الجزار، فقه التمكين وأثره في تطبيق الأحكام الشرعية، رسالة ماجستير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١١

المواقع الإلكترونية:

https://www.radioalgerie.dz/news/ar/article/208454/20210312.html-24

دنيا الوطن، صحيفة الكترونية

.www.alwatanvoice.com-25